

حنان جاد*

بين الأدب و"قلة الأدب" ..

روايات اليافعين والقضية الفلسطينية

بينما يهتم الغرب باليافعين، وقد خصَّهم بأنواع أدبية خاصة بهم، فإن هذا النوع من الكتابة يدور في نطاق ضيق عربياً، ولا يكاد يُرى على رفوف المكتبات العربية، لكن هناك محاولات لمقاربة هذا النوع الأدبي، وخصوصاً من جانب كتّاب فلسطينيين. وهذه المقالة تُجري مقارنة بين روايتين لكاتبتين غربيين مصنفتين ضمن أدب اليافعين، واثنيتين لكاتبتين فلسطينيين، وكلها يدور حول القضية الفلسطينية، لكن من مفاهيم وزوايا مختلف بعضها عن بعض.

في الأعمال الأدبية تقلّ قيمها ولا تصل إلى أهدافها.

في هذا السياق تأتي القضية الفلسطينية كمحور بارز ومتميز ومتماسك في هذا الأدب النامي. الملامح العديدة للمعاناة الفلسطينية تتراوح ما بين: البحر والجبل والحاجز والمعبر؛ عرب ٤٨ و٦٧ وأوسلو واللاجئين؛ القدس ورام الله وغزة والمخيم. أما التباسات الصراع فهي الحقائق والأكاذيب والأساطير التي أحاطت به. ذلك كله ألهم كتاباً فلسطينيين وعرباً وحتى غربيين، بكتابة عدة أعمال روائية عن اليافعين

اليافعون الأغلبية المطلقة يشكل

بين فئات سكان الوطن العربي، ومع ذلك تتعامل الثقافة العربية مع تلك المرحلة العمرية كعارض، مثل البثور، فتراقبها بتذمر في انتظار أن تنتهي. وبينما تكتظ رفوف المكتبة الغربية بكتب عن اليافعين (young adults)، يغذيها خط إنتاج هائل يقدم جميع أشكال الأدب من الشعر والرواية بأنواعها والسيرة الذاتية والتجارب الشخصية والرحلات، نجد المكتبة العربية بشكل عام مرتبكة. هناك، بصورة عامة، "قلة أدب" فيما يخص اليافع العربي، من حيث الكم القليل، ومن حيث النوع أيضاً. إن الأدب لمصلحة التربية والقيم الاجتماعية أو الأخلاقية قليل، لكن عندما "يقُل الأدب"

* كاتبة مصرية.

شعب يتعرض للظلم ليس كمشاهدة مباراة كرة قدم، وأن انحياز الضمير الإنساني، وخصوصاً ضمير الكاتب، يجب ألا يكون إلى فريقه، بل إلى القضايا العادلة. ومن دون شعارات، أو مشاعر عداء مسبق نابع من موقف أيديولوجي أو معاناة شخصية، تقدم الكاتبة شهادة في غاية الأهمية، بروائية خالصة، ولغة خالية من التشنج.

تخوض الرواية في جانب من الواقع الفلسطيني، حتى نحن العرب لا نكاد نعرف عنه، فتصور حياة عائلة فلسطينية ممتدة، تقترب من خلالها بشغف من عالم الرعاة الغامض، وتطرح ربما لأول مرة على مستوى الأدب أزمة الرعاة مع الاحتلال الذي يستولي على المراعي ويصادر المياه مهدداً نمط حياتهم وثقافتهم بالزوال. الكاتبة وبطلة روايتها معاً، تقدمان نموذجاً جميلاً وهادئاً وثابتاً للاختيار: الإرادة الحرة. فالبطلة تعرف منذ أن كان عمرها ستة أعوام أنها تريد أن تصبح راعية مثل جدّها، الأمر الذي لا يبدو مفهوماً أبداً في محيطها العائلي، إذ لماذا يريد إنسان أمامه فرصة للتعليم والترقي في الحياة أن يصبح راعياً، وخصوصاً إذا كان فتاة؟ "السعي وراء الأغنام لا يليق بالبنات، لا أحد سيرغب بالزواج منك."

لقد ولدت أماني مثل غنمة على جبل، وتشعر بأنها ولدت لتكون راعية، وستذهب إلى المدرسة لتتعلم، كي تحمي غنماتها وتطور عملها، وعندما تصل إلى عامها الثاني عشر يلتصق بها الاسم الذي أطلقته عليها ابنة عمها: "البنات النعجة". لكن ذلك لا يثنى عنها عن متابعة الاهتمام بقطيع الغنم الذي ترثه عن جدّها، وهو الذي سبقها قبل أعوام طويلة بقراره الصادم عندما اختار احتراف الرعي، وفضّله على السفر إلى مصر من أجل الدراسة، فـ "لأكثر من ألف سنة لم

وموجهة إليهم، وهي أعمال استهدفت ذلك الوعي الناشئ تأسيساً أو تزييفاً. هنا أربع روايات صدرت مؤخراً واستقبلت بشكل جيد جداً: روايتان غربيّتان تدفعان بـ "أدب"، الوعي في اتجاهين مختلفين، وروايتان عربيّتان عن الضحية التي تحكي كثيراً عن المعاناة بـ "القليل من الأدب".

"حفيدة الراعي"

بعيون كاتبة كندية هي آن لوريل كارتر نطلّ على الواقع الفلسطيني - وهو بالنسبة إلى الكاتبة واقع معقد تتطرق إليه في عمل يتميز بالجديّة والمعاناة النابعة من معاشية طويلة - عبر رواية بعنوان "حفيدة الراعي". آن الكندية التي لسبب ما اعتادت أن تزور إسرائيل منذ سنة ١٩٧١، وعملت كمعلمة في مستعمراتها ودرّست العبرية، اختارت أن تنتقل إلى الجانب الآخر، إلى رام الله حيث بدأت تعمل مع الفلسطينيين، وتسجل شهادتها من واقع تلك التجربة. تستهل آن روايتها "حفيدة الراعي" التي صدرت نسختها العربية عن دار "كلمات" (ترجمة جلال الخليل)، بعبارة جميلة لجلال الدين الرومي يقول فيها: "وراء أفكار الصواب والخطأ يمتد سهل فسيح. سألقاك هناك."

تلك اللغة التي تتوخى الإنسانية والفهم المتبادل في سياق الحديث عن "الواقع الفلسطيني"، تتمتع في الواقع، بنوع من السمعة السيئة، إذ يمتد هذا الرقي اللغوي عادة كمظلة لطيفة فوق رأس القاتل والقتيل، ويتوقع معه القارئ شكلاً من أشكال الإجحاف وخط الأوراق، ودعوة الضحية إلى أن تمد يداً مقطوعة أساساً إلى جلاّدها من أجل السلام. لكن الكاتبة تفاجئنا، بعد تجربتها في الأراضي المحتلة، بأن مشاهدة

العبرة الاستهلاكية، لكن المفاجأة التي تخرج عن أي نمط أو توقع، هي أن الصبي يقرر ترك الأرض المحتلة والعودة إلى أميركا من حيث أتى! لو صدر هذا الطرح عن كاتب عربي فلربما اتُّهم بالتطرف! فحتى المخيلة العربية أصبحت عاجزة عن أن ترى المحتل الصهيوني يعود من حيث أتى! يقول جونوثان مودعاً أماني: "لم أعد أستطيع البقاء في المستوطنة. في كل يوم أتخيل كيف كانت حياتك قبل المستوطنة. أتخيلك وأنت تسرحين بأغنامك مثل أول يوم شاهدتك فيه. لا سياج ولا جنود، ولا طريق سريع فوق أرضكم. المستوطنة دمرت حياتكم."

حصدت رواية "حفيدة الراعي" حتى الآن جائزة أفضل كتاب للعام من الرابطة الكندية للمكتبات العامة، وجائزة الكتاب الفخري من جائزة جيمس آدمز لكتب الأطفال، ودخلت قائمة الكتب المميزة لمجتمع عالمي من الرابطة العالمية للقراءة، وقائمة الكتب العالمية المميزة من المجلس الأميركي لكتب اليافعين. كما أن الرواية رُشحت لجائزة "ريد مابل".

"الطيارات تطير"

من منشورات "كلمات" أيضاً، وعبر المترجم نفسه، نقرأ الرواية الثانية بعنوان "الطيارات تطير" لكاتب أميركي هو مايكل موريرغو، يتناول فيها جدار الفصل العنصري: يرفضه ويبرره. وعلى عكس الرواية كارتير في روايتها "حفيدة الراعي" التي استندت إلى تجربة ومعايشة، يأتي موريرغو في روايته "الطيارات تطير" معباً بأفكار جميلة جاهزة، ومُلهماً بصورة جدار برلين الذي تشاركت الأيدي من على جانبيه في هدمه. إنه

تخلُّ عائلة أماني من راعٍ فيها؛ ولد يسرح بالغنم على الجبال الخفيضة، فيما يزرع الآخرون الوادي الضيق أسفل الجبل." هكذا توثق الكاتبة الحق الفلسطيني التاريخي في الأرض من دون شعارات، كما توثق الحياة البسيطة الغنية بالحكايات والمواقف، والتنوع داخل العائلة الفلسطينية التي تجسد بدورها حكاية شعب ومجتمع متجذر. وتوثق أيضاً العنصرية الإسرائيلية التي تصل إلى درجة حرمان الفلسطينيين من استخدام الطرق التي يستخدمها المستوطنون، والتي شُقت أساساً فوق أراضي انتزعت من الفلسطينيين! في البداية تأتي المستعمرة: تستولي على أرض المرعى، ثم الطريق الذي سيربطها بالعاصمة والذي يلتهم الحقول المزروعة، ثم الخوف من السكان الفلسطينيين الأصليين الذين يجدون أنفسهم مضطرين إلى الانزياح إلى مسافة تسمح للمستوطنين بالشعور بالأمان!

في الرواية جدل عن المقاومة يبدو فيه نفور الكاتبة من أشكال الكفاح المسلح بصورة خاصة، والتي يمكن أن تستهدف بشكل عشوائي المدنيين، وهناك شخصيات إسرائيلية تؤدي دوراً مهماً، في الرواية كما في الواقع، في مساندة حقوق الشعب الفلسطيني سعياً لتعايش عادل وسلمي، لكنهم - كما يبدو - يخوضون في بحر هائج من الاستبداد الإسرائيلي الديني المدعوم بقوة الدولة والقانون والسلاح الذي يحمله المستوطنون. وفي الرواية كذلك يافع يهودي، جونوثان، يتعلق على نحو ما بالصبيّة الراعية (أماني) بطلة الرواية، ويحاول حمايتها عندما تتعرض للخطر. للوهلة الأولى يبدو جونوثان شخصية نمطية فرضتها ضرورات تأكيد المبدأ الإنساني الذي تتوخاه الكاتبة انطلاقاً من

الذي يكبره بأربعة أعوام. وسنكتشف أن محمود قُتل على يد الجيش الإسرائيلي قبل عامين، أما سعيد صاحب الصوت الحكائي فأخرس فقد نطقه في إثر صدمة مشاهدته مقتل أخيه.

يجمع بين الأخوين هوايتهما المحببة: صناعة الطيارات الورقية وتطييرها على التلة حيث تفوح رائحة الزعتر، وتحوم الصقور راكبة الريح، وفي عَصاريّ الصيف يخرج أهل القرية كلهم ليتفرجوا على الطيارات، ويضحك الناس ملء أفواههم حين يشاهدونها تحلق عالياً في السماء! ويشرح الصبي المقتول ما يعتقد أنه السبب وراء هذه السعادة: "كلما طيرت طيارة يا أخي الصغير، أحسب نفسي موجوداً هناك في الأعلى، وأني بعيد عن كل هذا الذي في الأسفل هنا، بعيد عن الجنود وعن حواجز التفتيش وعن الدبابات."

تحت شجرة الطيارات، المكان المفضل، الشجرة الأقدم على التلة، يلتقي سعيد بمصور التلفزيون للمرة الأولى، وعندما يتعرض المصور لالتواء كاحله يصحبه الولد إلى بيته للمساعدة، ومن هناك يجمع المصور تفصيلات القصة التي تُصنع على نحو مفتعل: قتل هنا وقتل هناك، معاق هنا ومعاق هناك.

يقترّب المصور من القرية الموزعة على جانبيّ الجدار، ويسجل مشاهداته التي تجعل المعاناة متعادلة وعبثية: "الحافلات المنسوفة، الدبابات والجنود في الشوارع. الأطفال الذين يرمون الحجارة. المسلحون المقتنعون في استعراضات عسكرية. المستوطنات في أعالي التلال. البؤس في مخيمات اللاجئين."

أبطال الرواية على جانبيّ الجدار متساوون: أم إسرائيلية ماتت في فخ نصبه أحد المقاومين وابنتها أصيبت بالشلل،

يرى تطابقاً بين السور وبين جدار الفصل العنصري، ويصل مباشرة إلى نتيجة جميلة لكن متعسفة، فحواها أنه على جانبيّ الجدار قلوب متلهفة لهدمه وبناء جسور الصداقة، الأمر الذي دفعه إلى اختلاق الأحداث في الرواية لدعم استنتاجه. يهدي الكاتب روايته "إلى الأطفال الذين يعيشون على جانبيّ الجدار، الذين سيُسقطونه على الأرض ذات يوم. لا حاجة لمدافع أو أبواب نفير." وكأّم تقسم رغيف خبز بين طفلين، يتوخى الكاتب أن يكون عادلاً في توزيع المعاناة على جانبيّ الجدار الذي أنشأه الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين. تدور أحداث الرواية في سنة ٢٠٠٨ في فلسطين، حيث يتوجه المصور الصحافي ماكس إلى رام الله كي يصور فيلماً وثائقياً عن جدار الفصل.

الجدار هو الرمز الأكثر تأثيراً في حياته شخصياً كما يروي لنا، إذ شكل مشهد جدار برلين وهو يهوي، اللحظة الأكثر أملاً في حياته، وقد أتى ليصور جداراً آخر يهيج مشاعر الغضب ويهدد بالحرب من وجهة نظره. إن موقفه واضح منذ البداية، فهو ضد الجدار لكنه أتى ليراه، كما يقول، من جانبيه: "أريد أن أصور فيلماً عنه، أن أروي الحكاية، لكن من على جانبيّ الجدار، الفلسطيني، ثم الإسرائيلي." لكنه لا يروي الحكاية التي تنتمي إلى الأدب الواقعي الخيالي الذي يفترض أنه يعتمد في هذه الرواية، وإنما يفتعل أحداثاً تدعم فكرته المسبقة عن شكل الصراع في فلسطين وطبيعته.

مرة ثانية يقسم الكاتب روايته بين صوتين: صوت مصور صحافي يسجل يومياته كي يستعين بها على تذكر التفصيلات وتسلسل الأحداث الخاصة بالصورة التي التقطها، والصوت الثاني في الرواية هو صوت سعيد يناجي أخاه محمود

وقُتلت، ويصرخ محمود، بحسب شهادة عمه، في الجنود ويلقي عليهم الحجارة حتى تسقطه رصاصة. يقول العم: "الجنود يقولون لي إنه حدث بالخطأ. كانوا يطلقون رصاصات تحذيرية. هم آسفون، هكذا يقولون. أحد الجنود يبكي."

شخصية العم المتطرف الذي يؤمن بالعنف موجودة في الروايتين: "حفيدة الراعي" و"الطيارات تطير"، فهو شخصية واقعية ومحورية في الحكاية الفلسطينية، ويصوّر في الروايتين كنموذج بئس وغير محبب ويسبب المعاناة، ويمارس تعسفاً حتى على مَنْ حوله من أفراد العائلة. لكن بناء شخصية المتشدد في رواية "حفيدة الراعي" يأتي متسقاً، في الدوافع والتحويلات والتصرفات، فهو شخصية من لحم ودم يتكامل ماضيه مع حاضره، أمّا هذا المتشدد في رواية "الطيارات تطير"، فجرى استدعاؤه من مخيلة كاتب يريده "تيساً"، إلى درجة أنه بعد أن يستخدمه كمتطرف، يعيد استخدامه أيضاً كشاهد على براءة ونبل الجندي الإسرائيلي الذي يبكي بعد أن يقتل!

يواظب سعيد على تطيير طيارة ورقية، وعندما تغلو يحرقها لتعبر الجدار، وهناك تلتقطها الضحية الإسرائيلية (البنت ذات الشال الأزرق) من على كرسيها المتحرك، وفي ختام الرواية تعيد البنت إطلاق جميع الطيارات التي سبق أن أطلقها الأخوان محمود وسعيد، طيارات مكتوب عليها بالعربية سلام وبالعبرية شالوم. ويتعرف الفتى إلى البنت ويتذكر أنها كانت دوماً تشاهد بفرح الطيارات التي كان أخوه يطيرها. يقول سعيد: "نجلس وننظر لبعضنا من فوق الجدار؛ أنا من تحت شجرة الطيارات، وهي من الحقل أسفل المستوطنة." لا أعرف عملياً كيف تكون الرؤية ممكنة على هذا النحو!.. كيف من فوق الجدار؟!

وشاب فلسطيني قتله الجنود وفقد أخوه النطق في إثر الصدمة. اثنان باثنين! سطحية شديدة، وضعف في الحساب أيضاً! لا ينجحان في تمرير نبل المقصد، هذا إن وُجد. يوضح المؤلف أكثر وأكثر رؤيته إلى الصراع العربي - الإسرائيلي عبر مناجاة سعيد لأخيه المقتول، محمود، وهو يصف له مواجهته مع أحد الجنود الإسرائيليين على الحاجز:

كان ينظر مباشرة في عيني من النيشان على ماسورة بندقيته. أقول في نفسي، ربما يوماً ما أنت ستقتلني، ولكنك لن تعرف حتى لماذا تفعل ذلك. ابتسمت له. لم أرغب في أن أبدو خائفاً، ولهذا ابتسمت له. وابتسم لي. أؤكد لك أنه فعل، بل إنه غمز لي بعينه. ولهذا أقول في نفسي إنهم لا يمكن أن يكونوا كلهم أشراراً. إذا لم يكونوا كلهم أشراراً، ولا نحن كلنا أشرار، لم لا يمكن للطيبين من الجانبين أن يجلسوا معاً ويحلّوها؟

لكن المؤلف يخرج بالتدريج عن التزامه المسبق بالمساواة الكاملة بين طرفي الصراع، وهو يروي لنا على لسان العمّ، والعمّ "تيس" كما يصفه الكاتب، فهو متزمت ويؤمن بالعنف، ومع ذلك يستخدمه في تبرير الجدار بدلاً من أن يُطلعنا على دوافعه إلى اتخاذ موقف متشدد: "وقعت سيارة مستوطن في كمين صبيحة ذلك اليوم، امرأة قُتلت وأصيبت ابنتها إصابة بالغة في ساقتها."

وأخيراً يقرر الكاتب أن يحيط موت الفتى الفلسطيني محمود بالتبرير أيضاً. إذ يصرّ محمود على تطيير طيارته في ذلك اليوم الذي انفجرت فيه سيارة المرأة الإسرائيلية

نعرف أن والده سجين إداري لدى سلطة الاحتلال الإسرائيلية، الأمر الذي دفعه إلى ترك المدرسة والالتحاق بهذا العمل لينفق على الأسرة. من هذه اللحظة المفعمّة بالمرارة تنطلق تغريد عارف النجار في روايتها لفك "لغز عين الصقر" من أجل الوصول إلى كنز صغير.

بعد وفاة الجدة الكبيرة يعثر زياد داخل صندوقها على مفتاح بيتهم في قرية لفتا المحتلة وأوراق تثبت ملكيتهم للبيت والأرض، كما يعثر على خريطة وأحجية للوصول إلى الذهب الذي خبأه الجد الكبير ليلة رحيل العائلة عن البيت في القرية بسبب تهديد الجيش الصهيوني ووحشيته:

قال لنا إسماعيل: قبل يومين هجمت العصابات الصهيونية على قرية دير ياسين وقتلت وذبحت وسرقت أهالي القرية، وقد وصلنا خبر أنها تتجه صوبنا. من الأفضل أن نترك البيت لمدة عشرة أيام حتى يتحسن الوضع ثم نعود.

تبدأ الحكاية على حاجز مذل يسيطر عليه المحتل، وحياة كسيرة في مخيم: أب سجين من دون محاكمة، وابن يضحي بمستقبله مضطراً من أجل العائلة فيترك دراسته ليعمل وينفق على الأسرة، وأخ صغير مهدد بالموت بسبب عجز العائلة عن توفير نفقات علاج قلبه المريض، وأم تنخرط في البكاء حزينة، أمّا رواد الحاجز الذين يتملكهم الغضب من الانتظار الطويل فيوجهون غضبهم في اتجاه بعضهم البعض. وسط هذا اليأس تفتح الكاتبة باباً صغيراً للأمل: رحلة بحث صعبة ومحفوفة بالمخاطر عن الذهب المخبأ، تتحول إلى اتصال بالماضي، واتصال ما بين الفلسطينيين الذين يعيشون

لكن قبل أن يتمكن القارئ من تخيل إمكان حدوث تلك المعجزة، سيكون في انتظاره معجزة أخرى هي استعادة الصبي الأبكى لصوته، ومحاولة الفتاة الوقوف على قدميها. وبينما تنتهي رواية "حفيدة الراعي" بانهياف جدار بيت العائلة الفلسطينية، ومصادرة المرعى وكروم الزيتون، أي انهيار كامل، ونهاية واقعية حزينة ومربكة، فإن رواية "الطيارات تطير" على العكس منها تنتهي بمعجزات الشفاء الجماعية التي تصحب تطيير طيارات السلام؛ نهاية رمزية لقصة اخترعت واقعاً بهدف الترميز.

تقديم دار "كلمات" لكتاب "الطيارات تطير" في موقعها الإلكتروني كان صادماً، فهي أولاً وصفت الصراع بأنه صراع بين العرب واليهود، وثانياً ادعت أن الكتاب يساعد الناس على فهم هذا الصراع ولماذا لا ينتهي.

الروايتان، "حفيدة الراعي" و"الطيارات تطير"، تنتميان إلى الأدب الواقعي الخيالي، وكلاهما كتبه روائي غربي: الروائية كارتر التي بدأت رحلتها قبل أربعين عاماً إلى مستعمرات إسرائيل منحازة على ما يبدو، انتهت إلى عكس انحيازها: أمّا الكاتب موريريغو الذي انطلق من حياد معلن، فانتهى إلى رواية لا تخلو من انحياز إلى الطرف الإسرائيلي.

ومن منظور فلسطيني، تقدم الضحية شهادتها، عبر روايتين للفاعيين للكاتبة تغريد عارف النجار هما: "لغز عين الصقر"، و"ست الكل".

"لغز عين الصقر"

على حاجز قلندية تبدأ الحكاية. يبيع الفتى زياد الشاي للعالقين داخل سياراتهم، المنتظرين أن يأذن لهم المحتل بالمرور.

لكن القهر يتحول إلى مغامرة مفعمة بالأمل ولا تخلو من البهجة عندما يبدأ كل من في القصة بالعبور، مكتشفاً طريقه لتجاوز الحاجز والتصريح معاً: زياد يتسلل مع العمال كي يصل إلى كنز جده في القرية التي هُجروا منها ولم يعد مسموحاً له بمجرد زيارتها، وأخته تعبّر، افتراضياً، في الإنترنت حيث تتعرف على جمعية "موطني" التي توثق ملكيات وحقوق الشعب الفلسطيني المهجر، وتلتقي افتراضياً بجارة من قريتهم الأصلية لفتا، ومن خلالها تتمكن من مشاهدة القرية والبيت ولو عبر الإنترنت. أمّا الأب السجين فيعبّر نضالاً عندما يدخل في إضراب عن الطعام احتجاجاً على السجن من دون محاكمة، بينما تنضم الأم إلى واحدة من الجمعيات التي تدافع عن قضية الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، فتكفّ عن البكاء والنواح وتنخرط في العمل معهم.

صُعقت نجوى عندما سمعت والدتها الوديعة تقول لها غداً سنخرج في مظاهرة.

"ست الكل"

في رواية أخرى هي "ست الكل" تكشف تغريد عارف النجار جانباً آخر من معاناة الفلسطينيين، معاناة سكان غزة، عبر رواية مستوحاة من قصة حقيقية لشابة فلسطينية.

غزة وجه آخر للاحتلال أشد قسوة وجموحاً، والمواجهة معه مفتوحة: الحصار والعقاب الجماعي، وأصوات الانفجارات كلها جزء من الحياة اليومية.

على جانبي الحاجز، والممنوع عليهم التواصل عملياً. تنتمي هذه الرواية أيضاً إلى الواقعية الخيالية، وهي تتجول بالقارئ في قلب المعاناة الفلسطينية اليومية، والقهر الناجم عن الاحتلال، فتوثق الأسماء الفلسطينية: اسم المدينة، والقرية، والمستشفى، والسجن، والمخيم، والحاجز، والسوق، والمقبرة، والمنتزه، ومؤسسة المساعدة، كما توثق أداتي القهر الإسرائيلي اليومي: التصريح والحاجز، فكل شيء في حياة الفلسطينيين يتطلب تصريحاً إسرائيلياً، وكل حركة يسبقها حاجز:

القدس على مرمى حجر من بيتنا، ولكن مع كل هذه التعقيدات والحوادث فقد أصبحت وكأنها في بلد بعيد بعيد؛
[.....]

لا تنسي أن تأخذي معك شهادة ميلاد ابنك سالم وإلا أرجعوك معه عن الحاجز؛
[.....]

تكره نجوى عندما يطلبون منهم أن يمروا من خلال القضبان السوداء مثل قطيع من الأغنام... كل هذا لينتقلوا بضعة كيلومترات إلى مدينتهم (القدس) حيث دُفن أجدادهم؛
[.....]

جندية أثيوبية الأصل تتفحص التصريح المكتوب فيه اسم نجوى كمرافقة في رحلة أخيها الصغير إلى المستشفى: ليش لازم أنت كمان تروح؟ واخذ بس بكفي.. أمه.. بكفي.

كل شيء في غزة يمر عبر الأنفاق...
الناس... الحيوانات... البضائع وحتى
السيارات الكبيرة. أهل غزة أصبحوا
مثل الخلد؛
[.....]

طائرات إسرائيلية تكسر جدار
الصوت. أولاد الكلب، يريدون أن
يرعبونا.

صالح، الأخ الشهيد لبطة الرواية كان في
طريقه لجلب طعام لأصدقائه الذين يتمرنون
على غناء الرب استعداداً لمهرجان عالمي
لمناصرة فلسطين، حين استهدف صاروخ
إسرائيلي سيارة أحد الناشطين وقتل عشرة
من المارة كان هو أحدهم.

أما أبوها الصياد، فقد انهار أحد الأنفاق
فوقه بينما كان يحاول إحضار محرك
جديد لقاربه، وأصيب بالشلل. عائلة الصياد
الفقيرة أصلاً، أصبحت بعد قعوده عن العمل
معدمة. تكاد يسرى بطة الرواية تختنق من
الحاجة ومرارة سؤال الجيران. "ست الكل" هو
اسم قارب الصيد المربوط على الشاطئ بلا
عمل منذ إصابة الأب، وست الكل، هي يسرى،
كما أخبرها والدها، واسم القارب يشير إليها.
تقرر يسرى العمل كصيادة مكان أبيها،
وهذا محور رئيسي غني في الرواية، فالبنات
تقف في مواجهة الاحتلال الذي استولى على
البحر.

كان الاتفاق في معاهدة أوسلو
ينص على حق الغزيين في الصيد
حتى مسافة خمسة وعشرين ميلاً،
ثم قللت المسافة لتصبح اثني عشر
ميلاً، ثم أصبحت خمسة أميال، والآن
ثلاثة أميال فقط. وأصبحت سفن
الصيد الإسرائيلية الكبيرة تنافسهم
في أرزاقهم ترافقها السفن الحربية

لحمايتها.
من جهة أخرى تواجه يسرى مجتمع غزة
التقليدي المحافظ، كما أن هناك إشارات إلى
المذ الديني واستيلائه على المجتمع، وموقفه
المتشدد من تطلعات الشباب وأفكارهم.
تقف يسرى بصلافة في وجه الذين قالوا
عيب والذين قالوا حرام، عدا الاحتلال
الذي اقتحم البحر عليها وأبعدها عندما
تخطت الأميال الثلاثة المسموح بالصيد
فيها، مدفوعة بحاجتها إلى ما تعود به إلى
الشاطئ. تتصاعد محنة يسرى ومحنة جميع
الصيادين مع حادث سفينة مرمرة الشهير،
ويُمنع الصيادون من ارتياد البحر نهائياً:

يجلسون على الشاطئ عاجزين عن
السيطرة على مصائرهم وحياتهم.
يُفرغون غضبهم في أسرهم، وعندما
تعم الفوضى القطاع يقولون أنظروا
إلى الفلسطينيين، لا يستطيعون أن
يحكموا أنفسهم.

لكن يسرى التي أصبحت حديث الصحف
العالمية باعتبارها أول صيادة فلسطينية
في القطاع، تواصل انطلاقها، فتخرج إلى
الفضاء العام بعد خروجها إلى البحر عبر
نشر مدونة تعبر من خلالها عن قضيتها.
عجائز المجتمع يتحدثون عنها باستنكار،
"البنات المسترجلة"، وقلبها لا يخلو من الحزن
في مواجهة هذا الرفض من المجتمع، "لكنها
في الأسابيع الأخيرة مرت بتجارب لم تمر
بها أي واحدة منهن... صارت تشعر أن أفق
الدنيا أوسع بكثير من الأفق الذي يعيش
فيه." كما أن هذا المجتمع نفسه لم يخل من
مساندين من الرجال والنساء، حتى بين من
استنكروا في البداية.

تقترب الكاتبة قليلاً من التفاصيل
الشائكة، مثل مشكلة الفصائل الفلسطينية،

لكنها مجرد إشارات غاضبة لا تخوض
المؤلفة في نقاشها:

صالح يقول: أنا لست مع هذا
الفصيل أو ذاك.. أنا مع فلسطين.
تتمتع الأم: كلهم مثل بعضهم، همهم
الكراسي فقط، مش عارفين يوقفوا
إيد واحدة في وجه الاحتلال.
[.....]

وماذا عن الأشقاء العرب الذين
تبَنُّوا وظيفة السجان وصارت
مهمتهم حماية حدود إسرائيل؟

تشير الكاتبة، لكنها لا تخوض في نقاش
سياسي أو ديني، وانحيازها إلى التمرد على
المجتمع، كما إلى مقاومة الاحتلال، واضح
ونهائي، وإن اتسم باللطف وتدثر بالحاجة.
في هذه الرواية تشير الكاتبة إلى الآخر
الذي يؤمن بعدالة القضية الفلسطينية،
فتأتي على ذكر النشطة الأميركية راشيل
كوري، لكن لا ذكر للآخر الإسرائيلي، فهو
عدو يأتي بضمير الغائب المجرم فقط.
رُشحت الرواية الأولى ضمن القائمة
القصيرة لجائزة اتصالات، كما رُشحت
الرواية الثانية للقائمة القصيرة لجائزة
الشيخ زايد.

في الروايتين لا حياد ولا ادعاء بالحياد،
فالقصة تُروى من منظور فلسطيني خالص.
وبينما تأخذنا الرواية الغربية إلى
المناطق المظلمة بالالتباس، تحرمنا الرواية
العربية من الحق في ورودها! مقاومة
الاحتلال سلمية بشكل مطلق، حتى ما يدور
منها في الأذهان! الأمر الذي يعكس موقفاً
تربوياً أكثر منه روائياً، كأن الكاتبة تتوخى،
بشكل مبالغ فيه، مسألة عدم تحريض

يافع على العنف. تشير إلى الأصولية في
غزة، لكن نشاطها المشار إليه محصور في
التضييق الاجتماعي على الفتيات والفتيان
الفلسطينيين، ولا يتم تناول موقفها من
شكل النضال ضد المحتل.

في رواية "الطيارات تطير" للأميركي
مورييرغو يبدو البناء الحكائي مميزاً،
وتتنوع أشكال السرد، وتعدد أزمته،
ويستخدم الكاتب لغة شاعرية وصوراً
وأفكاراً على درجة من التركيب والجمال.
أمّا في رواية "حفيدة الراعي" فتستخدم
الكاتبة كارتر البناء التقليدي للرواية،
لكنها تقدم عملاً دسماً وغنياً وحافلاً
بالمعلومات من دون أن يتحول إلى كتاب
تعليمي. هي رواية كبيرة، من حيث الحجم
والقيمة والخيوط التي تفرق ثم تجتمع
والشخصيات المتنوعة، رواية لا تتجنب
الجدل الذي يُظهر منطق الشخصيات
المتعددة ويبرر مواقفها. هذه القيم الفنية
في الروايتين تسمح لكل الأعمار بقراءة
ممتعة، وتعكس ثقة الكاتب بالقارئ،
فاليافع، في الخطاب الذي تطرحه
الروايتين، ليس طفلاً، وليس محدوداً،
وإنما هو شخص يتأرجح بقسوة، جسداً
وعقلاً، بين الطفولة والنضج، والكتاب
يأتي لمساعدته على بلوغ نضجه المعرفي
والعقلي، وهو ما نفتقده في الرواية العربية
لليافعين. السرد في الروايتين يميل إلى
البساطة المطلقة، والأحداث تتتابع كما في
الحكايات، والنهاية سعيدة تعوّض عن، أو
ترمز إلى عودة الحق إلى أصحابه. لا تجريب
في البناء، ولا تحدي في الأسلوب، وحتى
عدد الصفحات قليل، وحجم الخط كبير
نسبياً، وهي أمور تعكس كلها شكوك
الكاتب في المتلقي. ■

المراجع

- عارف النجار، تغريد. "ست الكل". رسوم جولنار حاجو (عمّان: دار السلوى، ط ٢، ٢٠١٥).
- ——— "لغز عين الصقر". رسوم عمار خطاب (عمّان: دار السلوى، ٢٠١٤).
- كارتر، آن لوريل. "حفيدة الراعي". ترجمة جلال الخليل (الشارقة: دار كلمات، ٢٠١٢).
- موريرغو، مايكل. "الطيارات تطير". رسوم لورا كارلن. ترجمة جلال الخليل (الشارقة: دار كلمات، ٢٠١٤).



من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الاقتصاد السياسي لصناعة التقنية العالية في إسرائيل

فضل مصطفى النقيب ومفيد قسوم

٢٠٧ صفحات ١٠ دولارات



من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

دراسات في الدين والتربية وفلسطين والنهضة تكريماً للدكتور هشام نشابه

تحرير: محمود سويد وماهر الشريف

٣٢٩ صفحة ١٢ دولاراً

